المقتطف

الجزء العاشر من السنة الحادية عشرة

١ تموز (جولاي) ١٨٨٧ = الموافق ١٠ شوال سنة ١٣٠٤

الحرب

النبذة الثالثة . في جيوش العرب والفرنج في الاعصار الوسطى وسلاحهم وذكر بعض مواقعهم

تبيّن معنا مما مرّ عن وصف جيوش المتقدمين وسلاحهم ووقائعهم ان كل امّةٍ كانت تقهر التي قبلها وتسودُ عليها لكونها اتمّ منها نظامًا واوثق احكامًا واوسع خبرةً واسمى علمًا . الاّ ان ذلك لا يصدق على البرابرة الذين قهروا المملكة الرومانية الغربيّة وامتلكوا رومية وسادوا على اهلها فانهم كانوا دون الرومان تمدُّنًا بمراحل شاسعة ولم يكن لهم جيوش منظمة ولا علم في فن الحرب وسياستها ولم يبلغوا ما بلغهُ الرومان من ذلك الاّ بعد مضي نحو الف عام من تغلبهم عليهم

ومن الذين قهروا رومية الفرنج واصلهم اقوام من الالمان وغيرهم شديدو الأنفة والحميّة والنزعة الى القتال لا يطيقون الذلّ ولا يصبرون على الضيم وكان حمل السلاح شارة الحرّ منهم يقلّدهُ علنًا في مشهدٍ حافل ولا ينتزعهُ بعد ذلك في حلٍّ وارتحالٍ لتوقُّف مقامهِ في قومهِ عليهِ فلا يذلُّ الاّ متى عجز عن حمل السلاح وركوب الخيل . ولذلك كان الجيش عندهم معادلاً للامة . وكان مدار نظامهم في بدء امرهم على العائلة . ومن مجتمع عيالهم تألفت عشائرهم ومن مجتمع عشائرهم تألفت قبائلهم . وكانوا ينتخبون ملوكهم وقوّادهم ويفوّضون اليهم زمام الامر والنهي والسلطان المطلق ايام الحرب ويجردونهم عن ذلك ايام السلم فيكون كلّ مطلق الحريّة والتصرُّف . وينظرون في المسائل الكبرى جهارًا بمشهد الجميع ويتقاسمون الغنائم والاسلاب بالسواء هذا ما كانوا عليهِ لاوّل أمرهم وهو عكس ما صاروا اليهِ بعد ذلك من استبداد سراتهم

واعيانهم بالسيادة والحكم واذلال سواهم وجعلهم بمنزلة العبيد والارقّاء . وقد كان انقلاب حالهم هذا تدريجًا والظاهر ان اصلهُ اجتماع آحادهم على اطالهم . فلما كان دأبهم شنّ الغارات ومتابعة الغزوات كان شبانهم يجتمعون على مَنْ فاق اقرانهُ شجاعةً وتفنناً في ابواب القتال فيتعلمون صناعة الحرب عنهُ في ايام السلم ويجتمعون على كلمتهِ ويتذامرون لنصرتهِ في ايام الحرب . وعلى ذلك صار لكل مقاتل مشهور عصابةٌ تأخذ بناصرهِ فيحبوها بالعدد والخيول ويقسم لها النصيبَ من الغنائم والاسلاب فتصدع لأمرهِ ولا تطيع غيرهُ وكلما امتلك ارضًا وهبها منها اسهًا مقابل نجدتها لهُ . ثم صار الملوك وهؤلاء الرؤساء يصطنعون الاتباع والاعوان ويذبّون عن كل مَنْ اطاعهم وانتمى اليهم ويهبونهم من الاراضي التي يكتسبونها مكافأةً لهم على اتعابهم السابقة . وعلى توالي الايام كفّوا عن هبة الاراضي مكافأةً على الاتعاب السالفة وجعلوها شرطًا لاتعابٍ لاحقةٍ فكان ذلك ذريعةً الى استخدام الاتباع وتقييدهم . وبازدياد الاتباع والاعوان عند الرؤساء والاعيان كثر وقوع التعدي على الاحرار الذين لم ينضمّوا الى اعوانهم فاضطروا لصيانة حقوقهم واعراضهم ان يلوذوا باقرب الاعيان الى نحومهم ويطلبوا حمايتهم . فما كان من ذلك الّا ان دعاوي الاعيان طالت وعرضت حتى صاروا يعدّون انفسهم الموالي وسواهم العبيد فحصل من ذلك النظام الالتزامي المعروف عندهم "بالفيودال" الذي ساد فيهِ الاعيان واستبدوا بالحكم وجاروا على غيرهم من الاتباع والاعوان فانقسمت شعوب اواسط اوربّا الى احزاب صغيرة كلٌّ منها ينتمي الى سيّدٍ دون آخر وهمّة مقاتلة غيرهِ

وهذه الاحزاب لم تكن تتفق فتتحد يدًا واحدةً الّا اذا عارضها معارض في حقوقها فتتمالأ على دفعهِ وصون حقوقها ثم تعود الى ما كانت عليهِ من الخصام والانتقام كما كان في ايام شارل ذي الطارقة ولم يكن نظامهم يومئذٍ قد استحكم ولا امرهم قد استحصل . فان عبد الرحمن الاموي الاندلسي زحف على بلاد الفرنسيس سنة ٧٣٢ ميلادية بجيش عرمرم واستباح اهلها قتلاً وسبيًا واحرق منازلهم بالنار وحلّ في قلب فرنسا بين مدينتي تور وبواتيه . فتالب الفرنج وقدّموا عليهم شارل ذا الطارقة (وهي عمود كان يفل بهِ الجموع ويفرق المواكب) ونازلوا جيش عبد الرحمن بعسكرٍ كثيفٍ فتناوشوا ستة ايام استظهر فيها رماة المسلمين وتواقعوا في اليوم السابع وقعةً هائلةً انتصر فيها الافرنج نصرًا مبينًا وفتك انصار شارل الالمان فتكًا ذريعًا فقتلوا من جيش عبد الرحمن خلقًا بعدّ بمئات الالوف . واذا قام منهم سيّد عظيم فغلب الاقران واخضع الاخوان ولمّ شعثهم كما فعل شارلمان حين انشأ مملكتهُ المشهورة واخضع جانبًا متسعًا من اوربا التحموا معًا واتحدوا مدة تسلطهِ خوفًا من سطوتهِ وهيبتهِ . ثم عادوا بعد موتهِ الى الخصام والعبث بحقوق الانام . ولذلك

لم يتقدّموا في شيء من الاشياء لا في زمان السلم ولا في زمان الحرب اذ الانفصال والانقسام على ما تقدّم ينافيان التقدم والنجاح

وتعلّم الفرنج في بادىء امرهم بعض سياسة الرومان في حروبهم من مخالطتهم للرومان ومن العبيد الآبقين الذين كانوا يأتونهم من جند الرومان الاّ انهم كانوا يصفّون جيشهم صفًّا خاصًّا بهم ويبتدرون العدوّ بالهجوم . وكان سلاحهم ضربًا من الطَّبَر عريض الحديد قصير اليد يرمون به رميًا فيخرق الترس او يقتل الرجل ولم يلبسوا سلاحًا على ابدانهم وانما لبس قليلون منهم الخوذ وكانوا يحملون الدروس المستديرة والسيوف الممتدة على طول الفخذ والحراب المعقوفة من قواعد استها يرمون بها فتخرق الاتراس وتعلق بها لانعطافها ثم يهجمون على مَنْ خرقت ترسه وعلقت به ويدوسون على طرف القناة فيكشفونه ويضربونه بالطبر فيقتلونه . وكان اكثر مقاتلتهم مشاة بعضهم مدجّج بالسلاح وبعضهم خفيف وهؤلاء الخفاف يتّخذون من نخبتهم ويرّنون على العَدْو فيعادون الفرسان على جيادهم وينصرونهم في حومة القتال ثم ساءت حالهم حتى صاروا اتباعًا للفرسان

وقبلما يشيع النظام الالتزامي بازمان كان العرب قد تملكوا مصر والشام والعراق والاندلس واستوسق سلطانهم واستحكم نظام جيوشهم . وكان قتال العرب قبل الاسلام بالكرّ والفر وقتال غيرهم من الدول القديمة التي ذكرناها بالزحف تُرتّب فيه الصفوف على ما وصفنا "وتسوّى كما تسوّى القداح او صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم الى العدو قدمًا فلذلك تكون اثبت عند المصارع واصدق في القتال وارهب للعدو لانه كالحائط الممتد والقصر المشيّد لا يُطمع في ازالته . واما قتال الكر والفرّ فليس فيه من الشدة والأَمن من الهزيمة ما في قتال الزحف الاّ انهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافًا ثابتًا من الجمادات والحيوانات العُجْم فيتخذونها ملجأً للخيّالة في كرّهم وفرّهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب الى الغلب[1] " . فلما شرع العرب في مقاتلة الروم والفرس وغيرهم اضطرّوا الى مقاتلتهم زحفًا بمثل قتالهم فجعلوا يعدّون الجيوش تعبية الفرس والروم فيقسمون العساكر اقسامًا يسمّونها كراديس ويسوّون في كل كردوس صفوفه ويرتبون الكراديس " قريبًا من الترتيب الطبيعي في الجهات الاربع ورئيس العساكر كلها من سلطان او قائد في القلب وهو مذكور في اخبار الدولتين صدر الاسلام بالمشرق ودولة الامويين بالاندلس . فيجعلون بين يدي الملك عسكرًا منفردًا بصفوفه متميزًا بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة . ثم عسكرًا آخر ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى حدّه يسمّونه الميمنة . ثم

(١) نقل عن مقدمة ابن خلدون بتصرّف

عسكرًا آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونهُ الميسرة. ثم عسكرًا آخر من وراء العسكر يسمونهُ الساقة ويقف الملك واصحابهُ في الوسط بين هذه الاربع ويسمون موقفهُ القلب . فاذا تمَّ لهم هذا الترتيب الحكم إما في مدًى واحد للبصر او على مسافة بعيدةٍ اكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها او كيفما اعطاهُ حال العساكر في القلة والكثرة فحينئذٍ يكون الزحف من بعد هذه التعبية[1] "

وفي مثل هذا الجيش قال ابو الفرج البغا

جيشٌ يفوتُ الطرفَ حتى لا يرى ما غابَ من اطرافهِ محدودا
ويجيش حتى لا يظنَّ عديدهُ احدٌ لكثرةِ جمعهِ معدودا
فكأنما جعل الاله رواتبَ الأعلامِ اعلامًا لهُ وبنودا
يقضي على الاعداء خيفة بأسهِ قبل اللقاء تهددًا ووعيدا
وترى ونسمع لمعهُ وخفوقهُ فتخال فيهِ بوارقًا ورعودا

وكان سلاح العرب قبل الاسلام وبعدهُ مثل سلاح الامم المتاخمة لهم من سيوف ورماح وقسي ونبال ودروع من الزَرَد ومغافر وتروس ودرق وجعابيق وعرَّادات لرمي الحجارة مرمى بعيدًا وثغر الاسوار والحصون وهذه غلب استعمال المسلمين لها في حروب الصليبيين . واشتهرت عندهم الرماح السمهرية والردينية نسبةً (فيما قيل) الى رجل يسمَّى سمهر وزوجتهِ ردينة في خط هجر كانا يقوّمان الرماح . وكانوا يتخذون عيدانها من شجر الزين ومن المرّان وهو في محيط المحيط شجر باسق اوراقهُ كاوراق التوت ولهُ ثمر احمر في حجم التوت لكن داخلهُ نواة مستطيلة وقد يؤكل ثمرهُ على شدة عفوصتهِ. واشتهرت عندهم ايضًا السيوف المشرفيَّة التي كانت تُصنع في مشارف الشام والهندوانية المنسوبة الى الهند والخناجر والسيوف الدمشقية وهي لا تزال من اشهر السيوف . وكانت دروعهم ومغافرهم تنسج من الزَّرد والظاهر انهم لم يتسلحوا بالحديد المصفح كالصليبيين وغيرهم من الفرنج وكانوا يجاوزن تروس الجلد المشدود على الخشب بالعَقَب وتروس الفولاذ والدَّرق والمجف وهي اتراس لا خشب فيها ولا عقب

ولهم حروب كثيرة ووقائع شهيرة والقتال في اكثر المذكور منها بالكرّ والفرّ يتوقف الغلب فيهِ على شجاعة الافراد اكثر مما يتوقف على قتال الجماعات حتى لقد كان النصر او الخذل يتم لفريق من الفريقين بقتل حامية الواحد لحامية الآخر. ولهذا اكثر ذكر الشجعان بين العرب في الجاهليَّة والاسلام وتداول الناس ذكرهم خلفًا عن سلف . قال بعضهم في مدحهم

فواحدهم كالالف باسًا ونجدةً وألفهم للعرب والعجم قاهرُ

(١) نقل عن ابن خلدون بتصرف

وذُكر ان علي بن ابي طالب (رضه) كان من اشجع العرب اذا ضرب لا يثني . وقيل لهُ انك مطلوب فلو اتَّخذتَ طرقًا سابقًا فقال اني لا افرُّ على من كرَّ ولا اكرُّ على من فرَّ فالبغلة تكفيني . وقيل لهُ في حرب صفّين أتقاتل اهل الشام بالغداة وتظهر لهم بالعشي بازارٍ ورداء فقال أُبالموت أُخوِّف والله لا أُبالي أسقطتُ على الموت او سقط عليَّ . وفي وصيته لاصحابهِ في حرب صفّين كثير من علم الحرب ودلالة واضحة على انهُ كان بصيرًا بها جدًّا قال في كلامٍ لهُ "فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدّموا الدارع وأخّروا الحاسر وعضّوا على الاضراس فانهُ انبى للسيوف عن الهام والثووا على اطراف الرماح فانهُ اضون للاسنّة وغضّوا الابصار فانهُ أربط للجاش وأسكن للقلوب واخفتوا الاصوات فانهُ أطرد للفشل وأولى بالوقار واقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها الاَّ بايدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانهُ بقدر الصبر يتزل النصر" وقال الاشتر يوم صفّين يحرّض الازد "عضّوا على النواجذ من الاضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدّوا شدّة قوم موتورين يثأرون بآبائهم واخوانهم حنقًا على عدوّهم وقد وطّنوا على الموت انفسهم لئلاَّ يسبقوا بوتر ولا يلحقهم في الدنيا عارٌ"

وحرب صفّين هذه من حروب العرب المشهورة بين عليّ وبين معاوية بن ابي سفيان الاموي فخرج عليٌّ الى صفين في تسعين الف مقاتل فيهم سبعون من الذين شهدوا بدرًا وكثيرون من المهاجرين والانصار وذلك لخمسٍ خلونَ من شوّال سنة ست وثلاثين هجرية . وبلغ معاوية خروج عليٍّ فجمع من جنود الشام خمسةً وثمانين الف مقاتل وسبق عليًّا الى صفين واتفقا على الموادعة الى آخر المحرَّم من سنة سبع وثلاثين لانهم يحرّمون القتال فيهِ . فلما كان آخر المحرَّم كتب عليٌّ الى اهل الشام يحذرهم من الوقوع في المهلكة فابوا الاَّ الحرب والقتال حتى يهلك من هلك عن بيّنةٍ ويحيا من حيَّ عن بيّنةٍ . فعبّى عليٌّ جيشهُ وقدّم عليهم الاشتر المذكور آنفًا وتصافَّ اهل الشام والعراق ووقع القتال بينهم وكان هذا دأبهم من مستهلّ صفر الى السابع منهُ وفيهِ قتل عمار بن ياسرٍ من اصحاب عليٍّ ولهُ من العمر ثلاثٌ وتسعون سنة وقتل بعدهُ كثيرون من الصحابة في وقعات أُخرى حتى كانت ليلة الهرير فركب عليٌّ في اثني عشر الفًا من نخبة فرسانهِ وحمل على جيش معاوية فقتل منهم خلقًا كثيرًا وكاد يوقعهم في الفشل . وطلب عليٌّ حقن دماء المسلمين فنادى معاوية على مَ نقتل الناس ما بيننا هلمَّ احاكمك الى الله فايُّنا قتل صاحبهُ استقامت لهُ الامور . فقال عمرو بن العاص لمعاوية قد أنصفك ابن عمك فتقدم لمبارزتهِ . فقال معاوية ما انصف انك تعلم انهُ لم يبرز اليهِ احدٌ الاَّ قتلهُ فأحجم عن مبارزتهِ . ثمَّ كان من امرها ما كان من احتيال عمرو بن العاص على خلع عليٍّ من الخلافة ورجوع كل فئة من الفئتين الى مقرّها

هذا ما كان من قتال العرب في بدء الاسلام واما بعد ذلك ولا سيَّما في ايام الاندلسيين فكان قتالهم زحفاً كقتال الفرنج لكنَّ ما عثرنا عليهِ من وصف حربهم وقتالهم مختصر غايةً او مطوَّل فالمختصر لا يفيد الفائدة المطلوبة في ما نحن بصددهِ والمطوَّل اشبه بوصف الشعراء منهُ بوصف المؤرِّخين لم ينظر فيهِ الى سياسة الحرب عند العرب بل الى شجاعتهم وهول معاركهم . واحسن ما عثرنا عليهِ في سياسة الحرب ابياتٌ من قصيدة لابي بكر الصيرفيّ شاعر الاندلس اوردها ابن خلدون في مقدمتهِ وهي :

أُهديكَ من أدبِ السياسةِ ما بهِ ... كانت ملوكُ الفرسِ قبلكَ تولعُ
لا انني ادرى بها لكنها ... ذكرى تحضُّ المؤمنينَ وتنفعُ
والبسْ من الحَلَقِ المضاعفةِ التي ... وصَّى بها صنع الصنائعِ تبعُ
والهندوانيَّ الرقيقَ فانهُ ... أمضى على حدِّ الدلاصِ وأقطعُ
واركبْ من الخيلِ السوابقِ عدَّةً ... حصنًا حصينًا ليسَ فيهِ مدفعُ
خَندقْ عليك اذا ضربتَ محلةً ... سيَّانَ تتبع ظافرًا او تتبعُ
والوادِ لا تعبرهُ وانزل عندهُ ... بين العدوِّ وبين جيشكَ يقطعُ
واجعلْ مناجزةَ الجيوشِ عشيَّةً ... ووراءكَ الصدق الذي هو امنعُ
واذا تضايقت الجيوش بمعركٍ ... ضنكٍ فاطراف الرماحِ توسعُ
واصدمهُ اول وهلةٍ لا تكترث ... شيئًا فاظهار النكول يضعضعُ
واجعلْ من الطلاَّع اهل شهامةٍ ... للصدقِ فيهم شيمة لا تخدعُ
لا تسمع الكذَّاب جاءكَ مرجفًا ... لا رأيَ للكذَّابِ فيما يصنعُ

وعقَّب عليهِ ابن خلدون فقال : "قولهُ

واصدمهُ اول وهلةٍ لا تكترث ... شيئًا فاظهارُ النكول يضعضعُ

مخالف لما عليهِ الناس في امر الحرب فقد قال عمر لابي عبيد ابن مسعود الثقفي لما ولاَّهُ حرب فارس والعراق فقال لهُ اسمع واطعْ من اصحاب النبي صلى الله عليهِ وسلَّم واشركهم في الامر ولا تجبينَّ مسرعًا حتى تتبيَّن فانها الحرب ولا يصلح لها الاَّ الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف . وقال لهُ في أُخرى انهُ لم يمنعني ان اؤمِّر سليطًا الاَّ سرعتهُ في الحرب وفي التسرُّع في الحرب الاَّ عن بيانٍ ضياعٌ والله لولا ذلك لامَّرتهُ لكن الحرب لا يصلحها الاَّ الرجل المكيث . هذا كلام عمر وهو شاهد بان التثاقل في الحرب أولى من الخفوف حتى يتبيَّن حال تلك الحرب وذلك عكس ما قالهُ الصيرفيُّ الاَّ ان يريد ان الصدم بعد البيان فلهُ وجه والله تعالى اعلم" انتهى

كلام ابن خلدون . وسيأتي معنا بيان وافٍ لذلك في كلامنا على الهجوم والدفاع في حروب المحدثين

اما النظام الالتزامي الذي ساد فيهِ امراء الفرنج واعيانهم فلما كان حدوثهُ تدريجًا كان تغيُّر مراتب الناس فيهِ من أعلى الى أدنى و بالعكس تدريجًا ايضًا وكذلك تغيُّر اسلحتهم. فصار الفرسان لا يتخذون الاَّ من الاشراف والمشاة من الفلاحين والعبيد وكان الامراء والاعيان ينفقون الاموال الطائلة على اسلحتهم وعُددهم وعُدد اعوانهم ولا يسلحون الفلاحين التابعين لهم او يسلحونهم بادنى انواع السلاح وكان الجيش عندهم يؤلَّف من الفوارس وهم اصحاب السيادة والشاكين السلاح وغيرهم من الاتباع كالفلاحين الملتزمين لاراضيهم

فالفلاحون والعبيد والشاكون السلاح رجال الفوارس والفوارس رجال الامراء والامراء رجال الملك وحكم الملك في امرائهِ كحكم الامراء في فوارسهم او الفوارس في رجالهم. فيجتمع الادنى منهم على كلمة الاعلى و يقاتل قتالهُ و يغزو غزواتهِ و يقيم في خدمتهِ من عشرين او ثلثين يومًا الى ثلثة اشهر في السنة ثم يرجع الى مقرهِ لدولي مصالح نفسهِ . فلاستبداد الاعيان بالسلطان وكثرة انتسابهم بعضهم على بعض لم تتقدَّم صناعة الحرب عندهم حتى زحفوا على بلاد الشام وكانت الحروب الصليبية فاضطرَّتهم الاحوال من ثمَّ الى تحسين سياسة الحرب لانهم كانوا جماعات كثيفة في بلاد غريبة تحدق بهم الاعداء من كل جانب فلزم لهم ان ينظروا في ترتيب امورهم وتحسين اصطفافهم ثم لما كان عددهم يقلُّ وحاشيتهم ترقُّ كان القوَّاد والفوارس يرون ان لا مناص لهم من تسليح رجالهم وتمرينهم على القتال والاعتماد عليهم في المناجزة والاعتراف ببأسهم ولذلك جعلوا يعتمدون على المشاة وكانوا لا يعدُّونهم شيئًا يذكر قبل الحروب الصليبيَّة

وكانت زحفة الفرنج الأُولى على الشام في اواخر القرن الحادي عشر للميلاد وسلاحهم الواقي حينئذٍ من الزَّرد . و بقي كذلك الى غرة القرن الرابع عشر ثم شاع معهُ لبس الحديد المصفح وتزايد حتى كاد الزرد يبطل تمامًا في القرن الخامس عشر . وكان لباس فرسان الفرنج في اواخر القرن الثاني عشر ثوبًا من الزرد مشقوقًا من اسفلهِ ثم ابدلوهُ بثوب قصير الكمين يصل الى الركبتين ذي منطقة في وسطهِ وكانوا يعصبون رؤوسهم و يلبسون الخوذ على العصائب. وفي القرن الثالث عشر عادوا فاسبغوا الثوب الى الساقين واطالوا كميهِ واتخذوا قفَّاز الزرد لوقاية الكف والجراموق لوقاية الارجل وطوَّلوا السيوف ودققوا رؤوسها وصغروا الاتراس وجعلوها مثلثة الشكل وعلَّوا الخوذ وسطحوها من اعلاها وسمكوها حتى ثقلت . و بعد اواسط القرن الثالث عشر قصَّروا الزرديَّات وجعلوا للقفاز اصابع منفصلة ودوَّروا الخوذ من اعلاها وجعلوا يلبسون الزَّرد والحديد المصفح معًا ولذلك قصَّروا كي الزردية في القرن الرابع عشر واتخذوا للعضدين

والساعدين والكتفين والمرفقين واقيات من صفائح الفولاذ وكذلك للساقين والفخذين ولبسوا المغافر تحت الخوذ ودلّوها الى ظهورهم لوقاية الاعناق . وفي اواسط القرن الرابع عشر اتخذوا دروعًا من صفائح الفولاذ عوضًا عن دروع الزرد وغلب ذلك مع الزمان حتى لم تجئ سنة ١٤١٠ الاّ وقد صار لباسهم كلهُ من صفائح الحديد ما عدا التبّان فاسبغوا الدروع المعلمة بالنقوش والزخارف واضافوا اليها ما يستر البطن فوقوا بذلك الصدر والظهر والبطن ولبسوا الحديد على سائر الاعضاء

قال بعض الباحثين كان الفارس من هؤلاء المتاخرين يلبس القطع الآتية من القدمين فصاعدًا وهي (١) حذاءان من الفولاذ (٢) جرموقان لوقاية الساقين (٣) فخذيتان لوقاية الفخذين (٤) تبّان من الزرد (٥) حقوينان تتداليان على التبان فستراته من اسفل الحقوين فنازلاً (٦) درع (٧) ذراعيتان (٨) كتفيتان لوقايتهما وما بقي من الذراعين (٩) قفازان لوقاية كفيهِ واصابعهِ ثم يتقلّد خنجرهُ وسيفهُ القصير ويلبس رداءهُ فوقها وسيفهُ الطويل ويتناول عَلَمَهُ بيسراهُ . ويحمل ترسهُ فيكون اذ ذاك غائصًا في السلاح والحديد . وقد بطل لبس الحديد في زماننا لاجل الحرب والجلاد ولم يعُد يلبس منهُ الاّ الخوذة والدرع وذلك في فرَق قليلة من جيوش اوربّا كما في الحرس الملكي الانكليزي وحرس القيصر الروسي وقليل غيرها

قلنا ان الحروب الصليبيّة بين المسلمين والفرنج آلت الى تحسين صناعة الحرب واحكام سياستها عند الفرنج الاّ انها مع كل ما جرى بها من الوقعات التي تضرب بهولها الامثال كانت اشبه بقتال الكرّ والفرّ منها بقتال الزحف ولذلك اشتهر فيها الشجعان وبهم كان يتمّ الغلب في اكثر الاحيان ولا تعتبر ذات شان بالنظر الى سياسة الحرب وتنظيم الجيوش وادارتها في حومة القتال ممّا يعوّل عليهِ في حروب هذه الايام وانما معظم اعتبارها بالنظر الى ما يأتيهِ البشر اذا هاجت عواطفهم وثارت حميتهم بتأثير المؤثرات عمومًا والاعتقادات خصوصًا . ويتضح لك بعض ما كان عند الفريقين من المتحاربين من ذلك من ذكر وقعة حطّين لعماد الدين الكاتب قال : ثم سار صلاح الدين بنفسهِ ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوةً بالسيف . وكانت طبريّة للقومص (أرناط) وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعتهِ . فارسلت الفرنج الى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونهُ عن موافقتهِ السلطان ويوبخونهُ فسار معهم واجتمع الفرنج للقتال السلطان فرحل الفرنج من وقتهم وساعتهم وقصدوا طبرية للدفع عنها . فاخبرت الطلائع الاسلامية الامراء بحركة الفرنج فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية قرب تلّ يقال لهُ تل حطين فلما حان القتال خرج القومص محرّضًا الناس يقول لهم : لا تعود بعد اليوم . ولا بدّ لنا من رقم

القوم . واذا أُخذت طبرية أُخذت البلاد . وذهبت الطراف والتلاد . فما يبقى لنا صبرٌ . ولا بعد هذا الكسر جبرٌ . فالمسيح لنا والصليب معنا والمعموديَّة عمدتنا . والنصرانية نصرتنا . ورماحنا . قراحنا . وصحافنا . صفاحنا . وفي لوائنا اللأواء ومع اودّائنا الداوية الادواء . وطوارقنا الطوارق . وبارقنا البوائق . وسيف الاستبار بتّار تيّار . ولقرن البارونى من مقارنته بوار . وقد عثم بحرنا الساحل . وشدّد بابة المعاقد والمعاقل . وهذه الارض تسعنا ضيقًا وتسعين سنةً . وسلاطين الاسلام ما صدقوا ان يسلموا الينا ويسالمونا . ويبذلوا لنا القطائع ويقاطعونا . وطالما ناصبونا وما صافونا . وهادونا وهادنونا . وفي جمعنا تفريقهم . وفي فيئنا تعويقهم

ثم ماجت خضارمهم . وهاجت ضراغمهم . وطارت قشاعمهم . وثارت غماغمهم . وسدّت الآفاق غمائمهم . وهم كالجبال السائرة . وكالبحار الزاخرة . امواجها ملتطمة وافواجها مزدحمة . وفجاجها محتدمة واعلاجها مصطلمة . وقد جوى الجوُّ . وضوى الضوء . ودوى الدوُّ . وحوافر الحوافر للارض حوافر . والفوارس اللوابس في البيض سوافر . فرتّب السلطان في مقابلتهم اطلاعهُ . وقصر على مقاتلتهم آراءهُ . وحجز بينهم وبين الماء . والليوم قيظ . والقوم غيظ . فنفر النفير وتصادم العسكران والتحم القتال فابقن القوم بالويل والثبور . واحسّت نفوسهم انهم في غدٍ زوّار القبور . كلما خرجوا جُرِحوا . وبرّح بهم مرّ الحرب فما برحوا . وحملوا وهم ظماء . وما لهم سوى ما بايديهم من ماء الفِرِند ماء . فشوتهم نار السهام واشوتهم . وصمّت عليهم قلوب القسيّ القاسية وأصمتهم . واعجزوا وارعجوا . واحرجوا واخرجوا . وكلما حملوا رُدُّوا وأُردُّوا . وكلما ساروا وشدُّوا أُسِرُوا فاضطرموا واضطربوا . والتهنوا والتهبوا . فأَوَوا الى جبل حطّين يعصمهم من طوفان الدمار . فاحاطت بحطّين بوارق البوار . فرشقتهم الحنايا . وقشرتهم المنايا . وصاروا للردى درايا . ومن بقي منهم فجرّدوا العزيمة . واحتالوا في الهزيمة . وأُسروا الملك والبرنس أرناط ومقدّم الفداويّة ولم يصابوا منذ ملكوا هذه البلاد بمثل هذه الوقعة . ثم استحضر صلاح الدين الاسرى واوقع البرنس أرناط على ما قال وقال له : ها انا انتصر لمحمد ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل . ثم سلّ النجلاء وضربه بها . وقتل أسرى الفداويّة والاستبارية اجمعين ثم استحضر الملك وأمّنه وطيّب قلبه

ومما آل ايضًا الى تحسين صناعة الحرب وابطال نظام الالتزام غير حروب الصليبيين استقلال مدن فرنسا وجرمانيا وانكلترا وتحرّرها منه وكان البادئ بذلك لويس السادس عشر الفرنسوي سنة ١١٣٥ اراد به النكاية في الامراء وخذلهم . ومما آل اليه ايضًا استئجار الرجال للقتال بالمال واختراع البارود فضعف الامراء على توالي الايام واشتدّ ساعد العامّة وتمرّنوا على

القتال . وفي اواسط القرن الخامس عشر تقاتل فوارس برغندي ومشاة سويسرا فتغلب المشاة الفوارس في المواقع الثلث التي تواقعوا فيها فانحطّ مقام الفرسان ولم تغنهم اثواب الحديد فتيلاً وعلا مقام المشاة وعاد الى ما كان عليهِ عند الدول القديمة العظام. فلذلك ولانشاء شارل السابع ملك فرنسا جيشاً ثابتاً منظماً سقط النظام الالتزامي ولم تقم لهُ قائمة منذ ذلك الزمان

المال والارض

علم المطالع من المقالات التي سبقت في علم الاقتصاد السياسي ان كسب المال لا بدّ لهُ من ثلثة اسباب وهي العمل ورأس المال والارض . وقد ذكرنا ما بهِ الكفاية عن مشاكل العمّال ورؤوس الاموال فبقي علينا ان نذكر ما يتعلّق بالارض فنقول

ان طرق معاملة الناس للاراضي وكيفيات امتلاكهم لها وتصرفهم فيها بعضهم مع بعض تختلف باختلاف الزمان والمكان فاصطلاح المصريين مثلاً اليوم غير ما كان اصطلاحهم قديماً وغير اصطلاح الاوربيين ولا يلزم ان يبقى دائماً على ما هو عليهِ اذ اصطلاحات القوم كعاداتهم تتغيّر على توالي الايام بتغيُّر احوال الحضارة والعمران . فاذا نظرنا الى اصطلاح الناس في تقديم اسباب الكسب وجدنا ان اصطلاح بعضهم تقديمُ الانسان الواحد لها كلها واصطلاح آخرين تقديم الواحد لواحد منها او اكثر وتقديم غيرهِ لما بقي . وبهذا الاعتبار يُقسَّم الناس اقساماً شتى وتتفاوت اصطلاحاتهم في الحسن والقبح عند الاقتصاديين بحسب تمام انطباقها على علم الاقتصاد السياسي وقلّة انطباقها عليهِ . وها نحن نورد في ما يلي اشهر ما اصطلح الناس عليهِ مبتدئين باقلها انطباقاً على مبادىء علم الاقتصاد ومتدرجين منهُ الى ما هو اتمّ انطباقاً عليهِ بحسب ما قرّروهُ

فاوّلاً اصطلاح البلدان التي يباح فيها استرقاق البشر ويعوّل على الرقيق في فلح الارض واستغلالها فانهُ يتكفل صاحب الارض بتقديم اسباب الكسب الثلثة اي العمل ورأس المال والارض . لان العمل يقوم بهِ عبيدهُ الارقاء والرقيق وان كان عاملاً لا يعتبر بمنزلة العامل بل بمنزلة البهيمة اذ هو ملك سيّدهِ ولا حقّ لهُ ان يطالبهُ باجرة تعبهِ ولا هو حرٌّ بالعمل او عدمهِ فهو كالثور الذي يحرث الارض او البرذون الذي ينقل الامتعة او المواشي التي تربّى لادرار اللبن او تعلف وتسمّن . فالعبد الرقيق يعتبر قسماً من راس مال مولاهُ كالبقر والغنم والدواب . ولعلماء الاقتصاد كلام طويل في ذم الاسترقاق من باب الاقتصاد والسياسي اذ الرقيق يعمل عملهُ على رغمهِ لعلمهِ انهُ مسخّر لهُ بلا اجر ولا ثواب فعملهُ كثير التضييع قليل الجدْوى . الاّ ان الكلام في هذا المعنى